



القيصر الأحمر

قبل ذبوع شهرته الثورية بصفته الرجل الحديدي أو الذراع اليمنى للينين، كان جوزف جوغاشفيلي قد بدأ مسيرته شاعراً رومانتيكياً واعداً، وُلِدَ ونشأ في مدينة غوري التي كان نصف سكانها جورجيين والنصف الآخر من الأرمن. كانت أمه تناديه "سوسو"، وانتقلت معه إلى تفليسي (تبليسي، عاصمة جورجيا الحالية)، حيث خالط الفتى المراهق في الأسواق باعة الماء والباعة الجوّالين والعنّالين والنشّالين واللصوص الذين يعرضون مسروقاتهم المنهوبة من أرمينيا، وشاهد قوافل الجمال والحمير المحملة بالحرب والتوابل الآتية من بلاد فارس، والفواكه والنبيد من ريف جورجيا. كان "سوسو" المراهق قارئاً نهماً للأدب، يلتهم كتب إيميل زولا وفكتور هوغو وتولستوي، ولم يكمل دراسته. نشر قصائده الأولى بعمر السبعة عشر عاماً، تحت اسم مستعار هو "سوسيلو"، وكانت زاخرة بصور الأقمار والجبال والقيثارات. خمسٌ من هذه القصائد نشرها الأمير إيليا شافشافادزه، الشاعر الجورجي الأبرز في القرن التاسع عشر. كان شافشافادزه قومياً رومانتيكياً، وهو من أطلق على "سوسيلو" لقباً طارت شهرته فيما بعد: "القوقازي ذو العينين الناريّتين".

سِتَالِين



بعد سقوط الاتحاد السوفييتي وفتح ملفّات الأرشيف السريّ، تبين أن جوزف "سوسيلو" قد عاش خمس عشرة عشيرة عشيقة خلال عشرين سنة بعد وفاة زوجته سنة 1907، التقى بعضهم في منفاه السيبيري أثناء الحرب العالمية الأولى، وإذا كان هذا الرقم صغيراً في جو "الحرية الثورية" المتاحة و "لا يرقى إلى مصاف" زير نساء حقيقي، فذاك لأنه لم يكن يضع النساء على رأس أولوياته، إذ كنّ يأتين بعد الثورة والأنا الأعظم والمشاكل الفكرية والعشاءات التي يشرب فيها الكثير من الفودكا مع أصدقائه الرجال. إحدى هؤلاء العشيقات، وهي لودميلا ستال، ألهمته اسمه المستعار الثاني: "ستالين".

العاطفيّون

يجمع لسان العرب في جذر واحد بين كلمتي "الصواب" و "المصيبة"، قلتُ لنفسي وأنا أنقل إلى العربية ما كتبه



سيمون فايل: "ما أندر التعبير الصائب عن المصيبة"، وطلّني إن الشعوب المنكوبة في العالم الثالث تشاطر الروس جزءاً من الحصة المخصصة لهم من الأفكار المسبقة في أوروبا الغربية وأمريكا، ولنتذكر هنا مثلاً عن تداعيات صفة "روسية" في العالم العربي المعاصر، قدّمته ألكسندرا شريتح في روايتها "علي وأمه الروسية".

حين ألقت سفيتلانا ألكسييفتش محاضرتها "تاريخ الروح الروسية-السوفييتية" في جامعة أكسفورد حزيران 2016، استقبلت كلماتها بتلميحات ساخرة عديدة في الصحافة الإنكليزية، يبسارها ويمينها على السواء. أحد الصحفيين الإنكليز أبدى غثيانه من قصص العذاب الطويل وهو يقَلّب صفحات كتبها، وكأنها جارةٌ تدوّن "فضفضة" جارتها، واستغرب الاكتشاف المباغت لأهمية النقود لدى كُتاب روس كثيرين تخلّصوا من الكتب التي خيّبت آمالهم ورموها إلى المزبلة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، فتراكمت مجلدات غوركي وماياكوفسكي عند حاويات القمامة، وامتلات مكابس إعادة تدوير الورق بعدد هائل من نسخ الأعمال الكاملة للينين، وبين ليلة وضحاها تحول شيوعيون سابقون إلى كهنة أو "تجار شنطة". ثمة صحفي إنكليزي آخر ألمح إلى ما قالته ألكسييفتش عن "الحرية وفق جلالة الملكة "استهلاك"" بعد استرجاعها قصص النساء اللواتي قابلتهنّ وبكت معهنّ ذكريات الماضي السوفييتي، إذ تعدّبن "من دون أن يتحوّل عذابهنّ إلى حرية". قد لا تبدو مثل تلك السخرية غريبة لدى عموم المستمعين في أوروبا الغربية، وأحسب أن هناك تاريخاً حافلاً من الاستخفاف بالروس "العاطفيين"، المؤمنين بالقدر، المجاهرين بمشاعرهم الجياشة، المأخوذون بالكلام النابع من القلب، الفلاحين الأجلاف وعتاة السكارى، يضاف إليهم طبعاً أولئك السدّج الذين يحتوّن إلى العهد الشيوعيّ، وهم يغنون حول طاولات مطابخهم أغنيات فلاديمير فيسوتسكي أو يستقبلون ضيفاً أتى في الثانية ليلاً ليستعير كتاباً.

يبقى صوت ألكسييفتش فريداً في الحقول المملوغة للتاريخ الشفوي، أياً كان تصنيف كتبها، سواء أكانت أدباً تسجيلياً أم تقريراً صحافياً. عماد أعمالها كلها هو الآخرون وعذاباتهم، وإن كانت تخفي عن القارئ أيّ الأسئلة طرحت على المحاورين والمحاوّرات وكيف اختارتهنّ ولماذا، وهل راجعوا النصوص بعد تدوينها. وإثر سابقة فوزها بجائزة نوبل للآداب سنة 2015، ذكرت إن أحد المصادر الأساسية التي ألهمتها في الكتابة هو الكاتب البيلا روسي أليس أداموفيتش، ولأن أحداً لم يسمع بالأخير في الغرب، فقد أضافت اسم كلود لانزمان، ونوّهت خصوصاً بعمله "المحرقة". ألكسييفتش، البيلا روسية الأوكرانية، تكتب بالروسية، واختارت في معظم كتبها أصواتاً سوفييتية، وهي

سكندر

تدرك جيداً معنى صفة "سوفييتية" وتحولها أحياناً إلى نوع من "الوصمة". تتذكر كيف كان والدها معلّم المدرسة يبكي فتيان الزنك، أي الجنود السوفييت الشبان القتلى في غزو أفغانستان وهم يُرسلون داخل توابيت من الزنك إلى قبورهم في تراب الوطن، فقالت له: "كلّنا قتلة". صادف شابُّ ألكسييفتش مرحلة البيروسترويك، ومعظم اللواتي قابلتهنَّ يشبهنها من حيث إيمانهن باليوتويا السوفييتية وإمكانية إصلاحها. ولكن ما أخطر ظهور المخلّصين في غير أوانهم، وما أكثر الحروب التي بدأت بالإنقاذ وانتهت بأشنع الكوايبس.





أيهما أولاً؟

حين استرجعتُ جانباً من الصورة المحتملة للروس في أوروبا الغربية، أو بالأحرى "روسيا" بين الكاريكاتير والكابوس، أرض الشساعة المحيرة المضحكة المخيفة، المتأهبة لابتلاع أوروبا واليابان، تذكرتُ كتاباً صغيراً لتوماس مان عنوانه "غوته وتولستوي"، يسترجع في مقدمته ما قاله نيتشه إن الألمان لا يحسنون استخدام حروف العطف. جاء في هذا الكتيب ما يلي:

استأجر طالب جامعيّ وزميله غرفة تطل على حديقة منزل غوته. ذات يوم تسلل الشابان، وتواريا بين الأشجار ليلتقيا بالكاتب الشهير، وحين لاح لهما واقتربا منهما، ارتبكا ولم يجدا ما يجيبان به على سؤاله: "ماذا تفعلان هنا؟" أوصاهما بالانصراف إلى ما هو أهمّ، واكتفى بنصحهما الالتفات إلى دراستهما. أحد هذين الشابين صار أستاذاً جامعياً في اللغات الرومانسية. وفي أحد الأيام، انتبه خلال درس من دروسه إلى رجل يكبر طلبته الصغار عمراً وينصت إليه باهتمام. وعند انتهاء المحاضرة طلب منه الأوراق لينسخها ويعيدها إليه في الغد. كان هذا الطالب هو الكونت ليف تولستوي.

روستای





إذلال الشر

الكتب المترجمة لدى الدارين الغابرتين رادوغا (قوس قزح) والتقدم، مألوفة لدى قراء الأدب الروسي باللغة العربية. بالطبع، كانت تلك السلاسل الممتازة خاضعة للرقابة السوفييتية. لا أذكر مصادفة أسماء مثل بلاتونوف أو دولاتوف أو شلاموف، كما تأخرنا في التعرف إلى فاسيلي غروسمان وأوسيب ماندلشتام وإسحاق بابل وميخائيل بولغاكوف وجوزف برودسكي... القائمة طويلة، ونكاد نجهل الغالبية الساحقة من أسمائها.

كانت المفاجأة حين اكتشفنا اسماً آخر لم نسمع به، ألكسييفتش التي كُتبت كتبها للمنسيين وقصص المعذبين المطرودين من سجلات التاريخ، لكنني سأعود هنا إلى مثال آخر معروف تبناه الإعلام الغربي ورؤجه أيام الحرب الباردة.

حوكم جوزف برودسكي بتهمة الطفيلية الاجتماعية وتهم أخرى سنة 1961، قبل نفيه إلى معسكرات الأعمال الشاقة في سيبيريا، وقد سأله القاضي عن مهنته فأجاب: "شاعر ومترجم"، وحين سأله القاضي: "ومن قرّر أنّك شاعر؟ من صنّفك بين الشعراء؟" أجاب: "لا أحد، ومن صنّفك بين البشر؟"

يقول برودسكي إن الخيبة جزء من الوجود لدى المنفيين، ويسترجع في منفاه سنة 1982 هذه الذكرى:

قبل عشرين عاماً، في أحد السجون الروسية الشمالية، وقعت هذه الحادثة. في الساعة السابعة صباحاً، انفتح الباب ودخل المسؤول عن السجن متوجهاً بحديثه إلى المعتقلين: "أيها المواطنون! إدارة الأمن الوطني تدعوكم إلى المشاركة في المسابقة الاشتراكية لتقطيع الخشب المتراكم في الباحة الخلفية..."

لم تكن هناك تدفئة مركزية في تلك الأنحاء الشمالية البعيدة، وكانت وزارة الداخلية تعتمد إلى استقطاع ضريبة من الجهات المنتجة للخشب تعادل نسبة عشرة في المئة من الإنتاج. وفي ذلك اليوم، كانت الباحة الخلفية للسجن طافحة بقطع الخشب الضخمة المتناثرة، المتكدّسة بعضها فوق بعض. وبالتأكيد كان لا بدّ من تقطيعها. إلا أنه لم يسبق لهم



تنظيم أي مسابقة من هذا النوع.

- "وماذا سيحصل إذا رفضت المشاركة في المسابقة؟" سأل أحد المعتقلين.

- "ستبقى من دون طعام"، أجابه المسؤول.

جرى توزيع الفؤوس وبدأ العمل. انطلق المعتقلون والحراس يعملون وهم متحمسون. وعند الظهيرة انهار معظمهم تعباً وجوعاً. أعلنوا عن استراحة الغداء. جلس الجميع لتناول الوجبة، ما عدا ذلك المعتقل الذي احتج مستفسراً عن المسابقة. استمر في تقطيع الخشب ولم يتوقف. بدأ الجالسون يتندرون ويعلقون ساخرين، وكان بعض التعليقات لاذعاً: "انظروا! يقولون إن اليهود ماكرون، ولكن انظروا إليه..." وبعد وقت قصير، استؤنف العمل ولكن بحماسة أقل. عند الساعة الرابعة، تغير طاقم الحرس وظلت فأس واحدة تعمل من دون هواده. ناداه المعتقلون والحراس أكثر من مرة: "كفى! توقف، توقف..." إلا أنه لم يكثر بنداءاتهم، وكأن العمل قد استغرقه ولم يعد قادراً على التوقف. انقضت ساعة واثنان وثلاث، وهو لا يزال منهمكاً بتقطيع الخشب. حلق الجميع به، وسرعان ما انقلبت ملامح الاستغراب الساخر على وجوههم إلى إعجاب فغضب واستهجان. عند الثامنة مساءً، وضع الفأس جانباً، ومتمائلاً مترجاً، شق طريقه صوب زنارته وغرق في النوم.

خلال فترة اعتقاله الطويلة، لم يعد أحد إلى فكرة تنظيم مسابقة اشتراكية لتقطيع الخشب بين الحرس والمعتقلين، أيًا كانت أعداد قطع الخشب التي تصل إلى باحة السجن.

ربما نجح ذلك الشاب في تقطيع الخشب لمدة ١٢ ساعة متواصلة لأنه كان شاباً. ولعل الشاب جعله يدرك الحكمة الأزلية أكثر مما أدركها تولستوي أو غاندي. "من أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضاً، ومن سخر ميراً واحداً فذهب معه اثنين". لا تدعو مقولة الإنجيل هذه إلى الخنوع والاستسلام وإنما هي دعوة لدفع الشر وتحويله إلى عبث. المغزى كامن في إذلال الشر.



مقتطفات من "حكايات كوليفا"

واحدٌ من المآخذ التي قُبلت مراراً عن أعمال ألكسييفتش هو أنها تكتب عما لم تعرفه في الواقع، وتوثق ما لم تعيشه، وهي تستعير تجارب الآخرين وتحوّر ذكرياتهم وقصصهم، فالفارق شاسع بين الذين عاشوا جحيم التجربة وبين الذين ينقلونها. يقول واحدٌ من الذين قابلتهم، وهو يتحدث عن الأهالي الذين تنكروا لأقربائهم السجناء: "أنا رجل بسيط. لم يمسّ ستالين بسوء الناس العاديين أمثالي". لكن القائد العظيم وأبا الشعب قد نكّل بأعداء الشعب من رفاقه السابقين والمثقفين المنشقّين. لنعد إلى ما كتبه الشاعر فارلام شلاموف الذي اعتقل في الغولاغ، أي معسكرات الاعتقال السوفييتية التي دشّنها ستالين، وأمضى سبعة عشر عاماً في شبه جزيرة كوليفا في أقاصي سيبيريا الشرقية. كتب شلاموف إن "بروست أهمّ من النوم"، فالكتب الممنوعة مثل "بحثاً عن الزمن المفقود" كانت



مسموحة في الغولاغ، كان "السلطات كانت تعزّي السجناء في ما تبقى أمامهم من الدرب الطويل الذي قطعوه".
تتذكر طبعاً إن السجون السورية، في الثمانينيات والتسعينيات، كانت أكاديميات الأسد الاشتراكية لتخريج المثقفين.

هنا بعض مما رآه وشهده وفهمه شالاموف في الغولاغ:

- هشاشة الثقافة الإنسانية.
- تحوّل الإنسان إلى حيوان بعد ثلاثة أسابيع، في ظلّ الأعمال الشاقة والجوع والبرد والتعذيب.
- لا تُؤلّد الصداقة أبداً في الظروف الصعبة، المستحيلة في فسوتها. تولد الصداقة في الظروف الصعبة ولكن الممكنة.
- رأيث أن أول المستسلمين والمتبرّئين هم الأعضاء الحزبيون والعسكريون.
- فهمت لماذا لا يعيش الإنسان وعنده أمل، لأن الآمال لا وجود لها. إنه لا يحيا بالإرادة (عن أيّ إرادة نتكلم؟) بل بالغريزة وحدها، غريزة البقاء والدفاع عن النفس. مثل الشجرة، الحيوان، الحجر.
- اكتشفت أن قوتي الجسدية والروحية أشدّ مما ظننت.
- خلال هذه التجربة لم أحنّ أحداً ولم أرسل أحداً إلى الموت ولم أكتب تقريراً عن أحد.
- رأيث أن النساء أقوى وأكثر شجاعة من الرجال. لم أر رجلاً لحق بزوجته، ورأيث نساء كثيرات لحقن بأزواجهنّ...
- رأيث أن الروس شعب لديه ميول قوية نحو التذمّر والشكوى.
- فهمت أن العالم ينبغي تقسيمه إلى جبان وشجاع. 95% من الجبناء، وتحت تأثير أي تهديد مهما كان صغيراً، مستعدّون لارتكاب أفعال خسيصة مميتة.
- تعلمت أن أخطط ليوم واحد فقط لا أكثر.
- فهمت أن من يسرق ليس إنساناً.
- فهمت أولئك الذين يقفون في الصفوف الخلفية، أولئك الذين يكرههم الجميع، المرضى، الضعفاء، أولئك العاجزين عن الركض حين يكون البرد قارساً.
- فهمت أن الانتقال من حالة المعتقل إلى حالة المفرج عنه أمر في منتهى الصعوبة، يكاد يكون مستحيلاً.



ينذكر شالاموف أنا أحماتوفا التي كانت تردّد: "كم أودّ الذهاب إلى باريس. هذا الحلم يراودني دائماً". فأجابها ذات مرة: "ومن يمنعك؟ بعد لندن، اذهبي إلى باريس يومين". فقالت: "ماذا تقصد بمن يمنعني؟ هل مثل هذا السفر مسموح؟ لقد لزمث السفارة في إيطاليا، خوفاً من أيّ مفاجأة ليست بالحسيان". يقول شالاموف إن أحماتوفا كانت تكثّر هذه الحماقات، لا لأنها كانت تفكّر "لن يسمحوا لي بالسفر في المرة القادمة"، فالمرء لا ينتظر طويلاً "مرة قادمة" حين يتجاوز عمره السبعين عاماً، وإنما لأنها، أي أحماتوفا، كانت قد فقدت المقدرة على التفكير بطريقة مختلفة.



الابن المأكول

في كلامٍ قد يذكّرنا بزياد الرحباني، تقول إحدى الشخصيات الذين قابلتهم ألكسييفتش: "الفوضى كبيرة. نحن بحاجة إلى ستالين". مرة أخرى سأعود إلى أضحية معروفة من أصحابي الرجل الحديدي.



في ليلة ربيعية عام 1939، قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، داهمت الشرطة السرية منزل إسحاق بابل في موسكو، واعتقلت معه مخطوطاته التي ألفت لاحقاً، وكان بينها قصص غير مكتملة ومسرحيات وترجمات وسيناريوهات أفلام قديمة صامتة. بعد أيامٍ وليالٍ في جحيم التحقيق، اعترف للمحققين بتهمة التجسس الملققة ضده. أمضى شهوراً في السجن. وسنة 1940 اقتيد إلى حتفه وأعدم رمياً بالرصاص، وكان رجاؤه الأخير على منصّة الموت: "دعوني أنهي عملي". ومَن سيكتثر بموت كاتب سجين بينما رحى الحرب الكبرى تطحن أوروبا كلها؟ أعدم الرقباء اسمه أيضاً، فحُذف من السجلات والدوائر الأدبية، ومُنعت كتبه مثلما منع صاحبها من السفر في سنواته الأخيرة التي رفض خلالها أن يغادر موسكو.

عاش بابل طفولته وصباه في مدينة الأوديسة حيث شهد المجزرة التي ارتكبتها قوات القيصر؛ كتب القاصّ الجائع إلى الحياة قصصه الأولى عن قطاع الطرق واللصوص، رافق سائقي العربات والمومسات والمهزّجين، ووصف الفلاحين والجنود والكهنة والأخبار والأطفال والفنانين والممثلين والنساء من كافة الطبقات، وعرف الإفلاس والفقر. جازف بالانتقال إلى بطرسبورغ ليقيم قريباً من صديقه مكسيم غوركي، حين كانت إقامة اليهود أمثاله محظورة في هذه المدينة. ولما اندلعت ثورة أكتوبر 1917، انضمّ إلى صفوفها مثل كتاب وشعراء كثيرين، فقد تلاشت الرقابة وازدهرت الوعود. سنة 1920، ذهب بابل إلى بولونيا كمراسل حربي، خيلاً رافق فوج الفرسان الحمر الذين عبروا الحدود لينقلوا في حملاتهم أمجاد الشيوعية إلى القرى البولونية العاصية. هذه الرحلة أعادت بابل إلى واقع آخر، فكتب في يومياته: "كلهم يقولون إننا نقاتل من أجل العدالة، وكلهم مأخوذون بالغنائم. قتلة. شيء لا يطاق. الوضاعة والجريمة... المجزرة. كنا أنا والأمير العسكري نسير بين السكك على ظهر جوادينا، متوسّلين إلى الرجال كي لا يذبحوا السجناء" (لنتذكر هنا ما قالته ألكسييفتش في كلمة تسلّمها جائزة نوبل للآداب، حين ذكرت نساء روسيات من "زوجات الجبهة" شهدنّ اغتصاب الرفاق الروس لنساء ألمانيات في الحرب العالمية الثانية، ثم عاونتِ الروسيات الصامتات الألمانيات الباكيات ليغتسلن وواسينهنّ: "إن هؤلاء النساء هنّ التعبير الأسمى عن المثال الشيوعي: أسمى من الثورة ولينين").

بعد ست سنوات من تلك الرحلة إلى بولونيا، نشر إسحاق بابل عمله القصصي الأشهر "الفرسان الحمر". لم يكن أسلوبه في غنائيه وسرياليته، في مزيج السخرية والعنف، ملائماً لمقاييس الواقعية الاشتراكية، بينما كانت الرقابة الستالينية قد وطّدت أطنابها في كل مكان. لازم بابل موسكو، وبات مقلداً في النشر، فأثهم بالصمت، هو المسكون



بالكتابة عما يقال ويعاش في الرعب.

نثرُ بابل الصافي بعيد عن اضطرابات حياته وفوضاها وعذاباتها ومغامراتها. كان يقول إنه مثل بوشكين يطارد "الدقة والإيجاز"، إذ "ما من نصلٍ بمستطاعه النفاذ في قلب إنسان، ذاك النفاذ الجليدي، مثل النقطة الموضوعية في مكانها الصحيح". هذه الرهافة اللغوية سبقها انخراط الكاتب الفعلي في البروباغندا الثورية؛ كان قد كتب في شبابه: "اذبحوهم يا مقاتلي الجيش الأحمر! دوسوا أغطيةً توابيتهم العفنة إذا علّت رؤوسهم!" شيئاً فشيئاً تفاقم ارتياحه بالكثير من الأفكار التي كان قد اعتنقها، وتبدّد العديد من أوهامه، ثم حلّ النفور والاشمئزاز والصمت، إلى أن التهمت الثورة الحمراء ابنها الذي خاضها و زاد عنها.

لكن الأدب أبقى أحياناً، والخيال طريقٌ من طرق الخلاص القليلة. يظهر إسحاق بابل في رواية "الكاتب الشيخ" لفيليب روث، ونراه "خيالاً يمشط شعره وعرفَ حصانه بالمشط نفسه". عاد خورخي لويس بورخيس، في قصته "المعجزة السرية"، إلى كلمات بابل الأخيرة على منصة الإعدام. قد نرى في هذه القصة أشباح الإبادة النازية والستالينية، حين يعتقل جنود الرايخ الثالث الكاتب اليهودي يارومير هلاديك في براغ ويحكم عليه بالإعدام، وليلة تنفيذ الحكم يدعو الكاتب ربّه أن يمهلّه عاماً واحداً كي ينهي مسرحيته "الأعداء" التي لم يكتب منها سوى فصلين اثنين، فيستجيب الربُّ لدعائه. صبيحة اليوم التالي، أمام فرقة الموت، لحظة صاح الأمر "ناراً"، يتوقف الزمن عن الجريان ويتجمّد كل شيء باقياً على حاله إياها، فيعي هلاديك أن الربّ قد وهبه سنة كاملة تكثّف في لحظة واحدة لكي ينهي كتابة مسرحيته داخل رأسه، وقبل إضافة اللمسة أو الكلمة الأخيرة في عمله تدركه الطلقات ويموت. هذه ديمومة الأشياء من دون أن تتأثر بالزمن، وقد لا يروق مثل هذا التأويل لكثير من الماركسيين-الستالينيين أو المدافعين عن الواقعية في الأدب.





الكاتب: جولان حاجي